تذنيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي الآية وقوله فكلا أخذنا
بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا الآية وأشباهها من الآي بل
أكثر القرآن حققت ما بينته من إيجاز ألفاظها وكثرة معانيها وديباجة
عبارتها وحسن تأليف حروفها وتلاؤم كلمها وأن تحت كل لفظة
منها جملا كثيرة وفصولا جمة وعلوما زواخر ملئت الدواوين
من بعض ما استفيد منها وكثرت المقالات في المستنبطات عنها ثم
هو في سرد القصص الطوال وأخبار القرون السوالف التي يضعف
في عادة الفصحاء عندها الكلام ويذهب ماء البيان آية لمتأمله
من ربط الكلام بعضه ببعض والتئام سرده وتناصف وجوهه
كقصة يوسف على طولها ثم إذا ترددت قصصه
اختلفت العبارات عنها على كثرة ترددها حتى تكاد كل واحدة تنسي
في البيان صاحبتها وتناصف في الحسن وجه مقابلتها ولا نفور للنفوس
من ترديدها ولا معاداة لمعادها

فصل

الوجه الثاني من إعجازه صورة نظمه العجيب والأسلوب
الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها الذي
جاء عليه ووقفت مقاطع آيه وانتهت فواصل كلماته إليه ولم
يوجد قبله ولا بعده نظير له ولا استطاع أحد مماثلة شيء منه
بل حارت فيه عقولهم وتدلهت دونه أحلامهم ولم يهتدوا إلى
مثله في جنس كلامهم من نثر أو نظم أو سجع أو رجز أو شعر ولما
سمع كلامه صلى الله عليه وسلم الوليد بن المغيرة وقرأ عليه القرآن رق
فجاءه أبو جهل منكرا عليه قال والله ما منكم أحد أعلم بالأشعار مني والله ما
يشبه الذي يقول شيئا من هذا وفي خبره الآخر حين جمع قريشا عند حضور
الموسم وقال إن وفود العرب ترد فأجمعوا فيه رأيا لا يكذب بعضكم
بعضا فقالوا نقول كاهن قال والله ما هو بكاهن ما هو بزمزمته
ولا سجعه قالوا مجنون قال ما هو بمجنون ولا بخنقه ولا وسوسته
قالوا فنقول شاعر قال ما هو بشاعر قد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومبسوطه
ومقبوضه ما هو بشاعر قالوا فنقول ساحر قال ما هو بساحر
ولا نفثه ولا عقده قالوا فما نقول قال ما أنتم بقائلين من هذا
شيئا إلا وأنا أعرف أنه باطل وإن أقرب القول أنه ساحر فإنه سحر
يفرق به بين المرء وزوجه والمرء وابنه والمرء وأخيه والمرء
وعشيرته فتفرقوا وجلسوا على السبل يحذرون الناس فأنزل الله
تعالى في الوليد ذرني ومن خلقت وحيدا الآيات وقال عتبة
ابن ربيعة حين سمع القرآن يا قوم قد علمتم أني لم أترك شيئا إلا وقد
علمته وقرأته وقلته والله فقد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ما هو بالشعر ولا
بالسحر ولا بالكهانة وقال النضر بن الحارث نحوه وفي حديث
إسلام أبي ذر رضي الله تعالى عنه ووصف أخاه أنيسا فقال والله ما
سمعت بأشعر من أخي أنيس لقد ناقض اثني عشر شاعرا في الجاهلية
أنا أحدهم وأنه انطلق إلى مكة وجاء إلى أبي ذر بخبر النبي صلى الله عليه
وسلم قلت فما يقول الناس قال يقولون شاعر كاهن ساحر لقد سمعت
قول الكهنة فما هو بقولهم ولقد وضعته على أقراء الشعر فلم يلتئم
وما يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر وإنه لصادق وإنهم لكاذبون
والأخبار في هذا صحيحة كثيرة والإعجاز بكل واحد من النوعين
الإيجاز والبلاغة بذاتها والأسلوب الغريب بذاته كل واحد منهما
نوع إعجاز على التحقيق لم تقدر العرب على الإتيان بواحد منهما إذ كل
واحد خارج عن قدرتها مباين لفصاحتها وكلامها وإلى هذا ذهب
غير واحد من أئمة المحققين وذهب بعض المقتدى بهم إلى أن
الإعجاز في مجموع البلاغة والأسلوب وأتى على ذلك بقول
تمجه الأسماع وتنفر منه القلوب والصحيح ما قدمناه
والعلم بهذا كله ضرورة وقطعا ومن تكلم في علوم البلاغة
وأرهف خاطره ولسانه أدب هذه الصناعة لم يخف عليه ما قلناه

Copyright © King Saud University